وتتوالى الأبيات، وتتكاثر بعد هذا الجزازات فالشروح؟ فقه النص يشير إلى هذا، غير أنه لم يكتف عند هذا الحد، بل انتقل إلى عمل آخر كان النواة لهذا الكتاب، ولعله رأى أن ما علّق به على الأبيات لم يكن كافيًا فاتخذ وجهة أخرى مصغيًا لنصيحة من نصحه قائلا وأشار علينا بعض الإخوان بترك الكتاب لمن يأتي ويشاء النظر فيه فأجبته وجمعته وسميته كتاب إيضاح نظم السلوك إلى حضرات ملك الملوك وجزّأته ثلاثة أجزاء. وهنا يتساءل المحقق «هل نفهم من قوله السابق أنه يرى القصيدتين شيئًا واحدًا، ولابد لمن يريد التصدي لشرح الثانية فلن يتسنى له هذا إلا بعد شرح الأولى، فكأنَّ الأولى وسيلة الدخول إلى عالم الثانية؟. نحن نعلم أن من الباحثين من ذهب إلى أن التائية الكبرى ليست إلا ترجمة لحياة الشاعر الروحية كتبها عن نفسه بنفسه، وقصّ فيها ما تعاقب عليه من أطوار الحب وما عاناه من ألوان الرياضات والمجاهدات. أقول، نحن نعلم هذا، وكثرة أخرى من الدارسين كان لها رأيها القريب من الرأيين السابقين، ولكن الشيخ ناصر يختط لنفسه طريقًا ثالثًا يختلف عن الطريقين السابقين، ويرى أن هذه الحياة الروحية لابن الفارض في أطوارها الأولى لم تبدأ في التائية الكبرى، أوقصائد الديوان كلها كما رأينا، بل يراها ممثلة في تائيته الصغرى فقط، ومن هنا توجب سلوك الطريق من أوله، والوقوف عند الصغرى لملاحظة ذلك التطور الروحي ورصده، كما أنه يعدل هنا عما قرره سابقًا فقد أخذ بنصح من نصحه، وجعل من القصيدتين وشرحهما كتابًا ذا ثلاثة أجزاء بحسبان أنهما شيء واحد، فهو ليس شرحًا بالمعنى المباشر للشرح بل رصد للتطور الروحي لابن الفارض من خلال القصيدتين.

ويتوقف المحقق عند أمرين نراهما مهمين يتعلقان بالتائية الكبرى وحدها. أما الأول فيتلخص فيما يراه الشيخ ناصر من أن ابن الفارض ركّب جميع كلامه فيها على هذه الرواية المروية التي حكاها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى وجعل قاعدتها ومنتهاها في شرح ثلاثة أسماء الله تعالى من أسماء ذاته وصفة رابعة من صفات ذاته جل وعلا وهي السميع والبصير والقدير ولم يزل متكلمًا. أما الأمر الثاني فهو عنوان القصيدة إذ نرى الشيخ ناصر يقدم لها

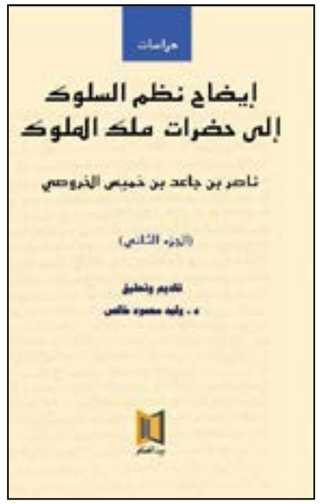

تكمن أهمية الكتاب في أن الشيخ جمع فيه التائيتين الصغرى والكبرى

عنوانًا يكاد يكون جديدًا لم نره في المصادر التي بين أيدينا، يقول: «.. وأعظم ما نظمه ابن الفارض في العلم منظومته التائية وهي التي سماها نظم السلوك إلى حضرات ملك الملوك وكلمة حضرات نحن اخترناها والا فهو سماها إلى خدمة ملك الملوك»، واعتمادًا على هذا سمى كتابه (إيضاح نظم السلوك إلى حضرات ملك الملوك). ولابد من الوقوف قليلاً عند هذا العنوان (الجديد) الذي يذهب إلى أن القصيدة هي (نظم السلوك إلى خدمة ملك الملوك) وهو مخالف للوثيقة التي بين أيدينا في ديباجة الديوان التي كتبها سبط ابن الفارض، ويقدم لنا فيها مراحل تسمية قصيدة جده إذ كان عنوانها أول ما نظمت (أنفاس الجنان ونفائس الجنان)، ثم صار اسمها (لوائح الجنان وروائح الجنان)، ثم ينقل سبط ابن الفارض عن أبيه عن جده أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم « في المنام وقال له: يا عمر ما سميت قصيدتك؟ فيجيب ابن الفارض: سميتها يا رسول الله: (لوائح الجنان وروائح الجنان). فيقول رسول الله: بل سمها نظم السلوك فسميتها بذلك.

واعتبار العنوان الذي تبناه الشيخ ناصر أحد العناوين التي أطلقت على القصيدة في انتظار دراسة مستقلة للعنوان وحده، ويبقى أمر آخر معلقا لا نستطيع البت فيه وهو السبب الذي حدا بالشيخ إلى إحداث ذلك التغيير في العنوان باختيار لفظة بدل أخرى فهذا مما لم يبيّنه لنا.

وحول منهج الشيخ ناصر يذهب المحقق إلى أنه اصطنع لنفسه منهجًا خاصًا به في تأليف هذا الكتاب يقوم على الترتيب والتنظيم، الأجزاء فالأبواب، وتسبقها مقدمة، فكأنَّ هناك خيطًا خفيًا ينتظم الجميع ليوصل إلى النهاية.

وعن أقسام الكتاب يقول المحقق إن الشيخ قسم كتابه إلى ثلاثة أجزاء وجعل لكل جزء عنوانًا، أما الأول فهو «في تخليص النفس والروح إلى مراتب الكمال براية محبة المريدين»، والجزء الثاني «في كمال النبي صلى الله عليه وسلم براية محبة المرادين وفي التوحيد لله المجيد»، وأما الجزء الثالث والأخير فهو في مقامات الحقيقة وفي التوحيد وفي كمال النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا التتابع البديع للأجزاء يشير إلى مرافقة الشيخ الدقيقة لسلوك ابن الفارض وتطوره الروحي، وتنقله بين المراحل مرحلة فمرحلة مما نراه مبسوطًا في التائيتين. ولم يرق للشيخ أن يترك هذا التعميم الذي نلحظه واضحًا على الأبواب فاتخذ من داخلها فصولًا وأبوابًا أوصلها إلى سبعة وعشرين فصلًا وجعل لكل واحد منها هي الأخرى عنوانًا.

ومن خلال البحث العلمي الدقيق يقطع المحقق أن كتاب إيضاح نظم السلوك إلى حضرات ملك الملوك (ثابت النسبة إلى الشيخ ناصر بن أبي نبهان الخروصي، ولتحقيق هذه النسبة سلك المحقق ثلاثة طرق، أولها نسبة الكتاب إلى الشيخ عند غير واحد من الباحثين قديمًا وحديثًا، وثانيها تصريح الشيخ ناصر نفسه بنسبة الكتاب إليه، وثالثها ورود عنوانه الصريح في ثنايا الكتاب نفسه.

كنز

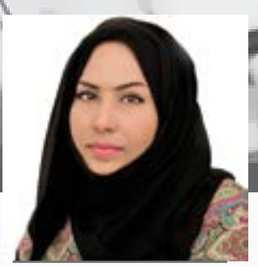

إشراق النهدي

قال: أنت كنز... ودفنها!

هذه الجُملة ذات الكلمتين فقط والتي قرأتُها ليلة البارحة على عجل ودون اكتراث في أحد الأمكنة التي لا أتذكرُ ماهيتها بالضبط، لم تمر على كياني بعبور اعتيادي، بل اجتاحت خاطري وعصفت بهدوئي لتلخِّصَ حياتي كاملة في مجملها البسيط جدا، وقد كنت دائما أراهن على الزهايمر الخاص بي أن يلغيها من ذاكرتي وإحساسي كما يفعل كل مرة مع كل شيء، ولكنه هذه المرة كسر قوانينه وتنصل من عرفه، لا أفهم لماذا! بل إنه تشوق بعناد إلى حد أن هذه الجملة أخذتني إلى مجرى تفكير آخر مشتت لا أتمنى له أن يدوم، وباتت تحوم حولي أفكار هوجاء بائسة، تشق في داخلي قائمة طويلة وعريضة طارحة سيلا ملحا للإجابة عن أسئلة لا تهدأ إلا بجواب.

فقط جملة تريد أن تعرف كم مرة دفنوني لأصبح كنزهم الأبدي؟

أتذكر والدتي أول مرة، عندما كنت في السادسة من العمر، انتزعت من بين يدي دمية كانت ترتدي فستانا أبيضَ بدا واضحًا لي أنه فستان زفاف، وبدأت تقنعني بأن من يلعب بالعرائس يتزوج مبكرا، وكنت ساعتها أظن بأن الزواج شيء مخيفٌ كابوسٌ لا يمكنني أن أتقبّله، وخاصة عندما رأيت صديق والدي يخطبني مازحا لابنهم آنذاك، وفكرت أنهم ربما يرغمونني على الزواج ساعتها، حينها حسمت أمري بألا ألعب بالدمى أبدًا حتى تلك التي لا تلبس فستان زفاف، ذلك اليوم أيقظ لدي رغبة عجيبة وحلما غريبا بأن أتحول ولدا، ساعتها لن أضطر إلى الارتباط بولد اخر. في هذا الحدث البسيط جدا كما أراه الآن بوجهة نظر امرأة ناضجة.. أجدني كنت طفلة ساذجة وخائفة، لكن مطيعة تم دفن حلم اقتناء الدمى لديها....

بعدها أتذكر والدي، عندما أجبرني على الانضمام إلى سلك المعلمات المملات مباشرة بعد التخرج من المدرسة، فقط ليضمن عدم اختلاطي بالرجال أو الوقوع في علاقة حب مع أحدهم أو أتعرض لخديعة منهم، فأجبرني على التدريس، وكنت أحلم بأن أصبح شيئا إبداعيا وخلاقا أكثر من مجرد كوني معلمة، كصحفية مثلا أو أن أتحرر قليلا وأصبح طيارة لأطير بعيدا عن هنا.... لكنه دفن أحلامي معترضا وممارسا لابتزاز عاطفي يقيم فيه طاعتي له، لأصبح بعدها ابنة بارة تتصاع له.

ثم عندما بدأت أعمل وأكسب مالا جيدا، قررت أن أبتاع سيارة ، لكن أخواني الذكور أحالوا دون تحقيق رغبتي، فتحول كل مالي لدفع أقساط سياراتهم مقابل توصيلهم لي إلى كل مكان أرغب في الذهاب إليه. حينها وافقت مراعاة لئلا أحرجهم أمام الناس أو أغضبهم، ولكني اكتشفت لاحقا أنني سأضطر لاستئجار سائق لتدبير مواصلات ثابتة تنقلني للعمل.... ساعتها دفنت حلمين لي: الراتب الذي يُقسط للبنك شهريا، والآخر السيارة التي لن أقتنيها بتاتا.

بعدها بسنتين تقدم لخطبتي أحدهم، لم أُبدِ أيّ اعتراض، لأني حتى وإن تجرأت ورفضت، فلن تسعني المناضلة من أجل التمسك باعتراضي، فأنا -كما يبدو واضحا- في مواجهة الجميع أمام رفض وحيد وضعيف، فقررت الانصياع لهم مرة أخرى معللة بأن الحب ربما يأتي بعد الزواج كما تقول والدتي، لكنه ما أن علم زوجي بأني مديونة وبلا راتب كامل، تغير وبدأ يعاملني بطريقة غير لطيفة وببرود تام، ولكن دون اختلاق مشاكل أستطيع أن أثور ضدها لأطالب بحق الاهتمام والمودة.. ولكن أعلم جيدا أن هذه الأشياء لا تُطلب بل تمنح طواعية... لهذا قررت أن أصبح نصف الممول المالي لاحتياجات البيت، لكن وبالمقابل لم أجد نصف ما أتمنى من قلب الزوج..... ساعتها جمعت أشلاء أحلامي المتبقية وأشعلتها في أكبر محرقة وتمنيتها الأخيرة.. وما أظنها كذلك.